الفصل السابع

" حضارة وأدى الرافدين "

وبدايات

" الفلسفة الكونية والخلقية"

ويشمل :

أولاً : تمهيد.

ثانياً : " الفلسفة الكونية " وحيوية المادة.

ثالثاً : " الفلسفة الخلقية " بين " ملحمة جلجامش و" تشريعات حمورابي " :

(أ) " الطاعة " جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم .

(ب) " ملحمة جلجامش " ومشكلة الحياة والموت.

(جـ) " فلسفة التشريع " عند حمورابى.

اولا : تمهيد :

كان لحضارة وادي الرافدين، وخاصة البابلية والأشورية، منذ زمن باكر، دورها المؤثر في تاريخ البشرية، الديني والعلمي والاقتصادي، وكان للفلسفة الخاصة بما بين النهرين نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي.

فهذه (بابل) أحد مخازن غلال العالم الرئيسية، حيث كانت المحاصيل تؤتي ثماراً وفيرة، وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثاني تميئ الكثير من المراعي[1]

وحاضرة الملك التي قامت على شواطئ الفرات، وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقراً عظيماً للإمبراطورية، كانت أعجوبة الأزمنة القديمة، وكان محيط دائرة السور الداخلي زهاء أربعين ميلاً، يقول أرسطو:

" إن بابل أمة أكثر منها مدينة " [2]

ولقد أضيف إلى مواردها الزراعية الثراء المستمد من النسيج ومن تجارة رائجة، فمنذ الألف سنة الثانية، كانت بابل سوق الشرق ومركزاً عالمياً، اجتذب إلى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وإيران، وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية إلى الفرات من أقطار البحر المتوسط إلى الغرب.

فكان للمدينة البابلية تأثير صادق في حياة العالم الغربي الصناعية والتجارية، والطرق العامة التي كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر أسيا الصغرى إلى سرديس وساحل بحر ايجا، كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان، وعلى

---

[1] أورد ثيوفرا سطس (theophrustus) أبعد تلاميذ أرسطو صيتا في كتابه (تاريخ النبات) : " في بابل تحصد حقول القمح مرتين في انتظام، ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات، وعندها ينجز هذا، فإن محصول الأراضي التي تفلح فلاحة سيئة يكون خمسين ضعفاً، بينما يأتي محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف نقلا عن : بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك، ١٩٦٥ م، ص ٣٨ .

[2] أرسطو – " السياسة ١١٢٧٦/٣ .

الأخص، لاقت العملة والمقاييس البابلية في الألف سنة الأولى انتشاراً أوسعاً النطاق في أسيا وعالم البحر المتوسط.

وقد أدى امتداد سلطان الإمبراطورية وسيادتها التجارية في أسيا الغربية إلى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم، وأهم ما جاءت به حضارة بابل، اللغة، وهي غنية وأكثر مرونة وأقوى على التعبير عن المجردات، وإلى جانب التقدم اللغوي سار تقدم الكتابة، فقد ساهم البابليون في تحويل الحروف الهيروغليفية السومرية إلى الشكل البابلي أولاً ثم الأشورى ثانياً، كما أن كتاب الحضارة الجديدة المختلطة عرفوا فصل الكلمات إلى مقاطع، والوصول إلى الأصوات البسيطة للحروف المتحركة المعروفة.

والجهود التي بذلت لتحليل الأشياء وردها إلى عناصرها الأولية، لا تقل أهمية في تطور الفكر الإنساني، سواء في ناحية الكلام، أم في ناحية الطبيعة، وقد سارت المحاولتان جنبا لجنب تسند كل منهما الأخرى [1]

هذا عن البابليين، الذين كانوا شعباً من الزراع والتجار، وكان للدين أجل قدر في أوضاعهم العامة فن في الحرب، أما الآشوريون [2] فعلى النقيض، كانوا منذ البداية إلى النهاية سلالة حرب، وكان ملوكهم قادة تحت أمرهم أشراف عسكريون، ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة، فإن تاريخهم هو سجل حروب وغزوات، وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل، وكان التقدم الوحيد الذي حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالأجر، وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة في المتحف البريطاني قصة متواصلة عن الحروب الوحشية

وبحكم أن أشور كانت أوثق اتصالا من بابل بغرب الأناضول وبسوريا، بل وبمصر، قد استطاعت القيام بهجمات مستمرة ضد الحيثيين والميتانيين المصطبغين بصبغة نصف هندية أوربية، وضد الأراميين المقيمين في سوريا العليا.

وكذلك كان الآشوريون مضطرين إلى الغزو للدفاع عن أنفسهم، فأسسوا أشد القوات العسكرية بأساً فيما عرف التاريخ القديم قبل الأنظمة الرومانية، واستخدموا تلك القوات لإرهاق البابليين ثم السيطرة على أسيا القديمة بأسرها، وحوالي عام

---

[1] راجع أورسيل : الفلسفة في الشرق، دار المعارف، ترجمة محمد يوسف موسى، ١٩٤٧ م، ص ٧١ .

[2] "وأشور" كلمة تدل على الأمة والإله الوطني والحاضرة.

١١٠٠ ق.م. أعلن (يتجلات فالازار الأول) نفسه " ملكا للعالم كله وملك الملوك القادر "[1]، فوضع بهذا ادعاء عالمية، أخذها عنه بعدئذ الإيرانيون والمقدونيون والقياصرة، وكان لذلك رد فعل هو أشد في نظام العقائد أو الأفكار، مما هو في نظام المطامع المادية، إذا أنه كانت الإمبراطوريات ضعيفة سهلة الانهيار، فقد كان واجبا أن يتخذ المثل الأعلى للسيطرة الإمبراطورية شكلا دائما عاما.

وكانت طريقة الآشوريين التي اتبعوها للبحث عن هذه السيطرة، هي طريقة عبادة القوة الوحشية المنظمة، ذبح المهزومين، وسبي شعوب بأسرها، وإفناء ملوك محترمين لدى أعدائهم في مقابرهم، ومصادرة الآلهة، فقد تميز الآشوريون بوحشيتهم الباردة، التي كانت تجرى بحساب معلوم، وتختلف كل الاختلاف عن وحشية الرجل غير المتمدين .

فقد كتب أحد الأمراء الآشوريين القدامى عن أعدائه:

" ملأت بجسومهم وديان الجبال وقللها، بترت رءوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز، أشياء لا تحصى " . وكان الآشوريون يخلصون في تعصب، لدينهم، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الهم أشور ولمجده، ولكن لم يكن للكهنة إلا أثر قليل في استشاراتهم، وهم لم يضيفوا شيئا إلى الحضارة البابلية، لكنهم اشتركوا فيها، لقد تلقوها بقبول، وحفظوا شواهدها في حولياتهم ومكتباتهم، ونشروا نورها حتى الحدود الإغريقية والمصرية، وقد أسسوا الدين على مبادئ الإخلاص والخوف، فإلههم (أشور) الذي أسقط (ماردوك) عن عرشه، لم يطلق عليه اسم العطف إلا بقصد استمالته وتخفيف ظلمة، وهى طريقة تخفيف احتيالية بها كان للإله المخيف أن يطمع من أتباعه في إخلاص هادئ، فمنح التابع نفسه لإلهه، وذلك وإن كان مسبباً عن الخوف، فإنه لا يمنعه أن يكون واثقا به.

فالمثل الأعلى عند الآشوريين هو " المتوحش والمولع بالحروب "، في حين كان عند البابليين " الأخلاقي الإنساني الأبوي الصبغة" .

هذا، وقد دفعت الحاجة بالإنسان العراقي القديم إلى اكتشاف معارف هامة عن قوى الطبيعة، وأسرارها لتسخيرها لمصلحته، ولعل مبتكرات العلوم الرياضية

---

[1] " الفلسفة في الشرق "، ص ٨٠ .

والفلكية والجغرافية والطبية والموسيقية، والتي تجاوزت مرحلة " تراكم الخبرة " إلى أساليب البحث والتصنيف والتركيب والاستنتاج، بمعنى أن الإنسان الرافدى امتلك المعرفة النظرية لاكتشاف القواعد العامة في هذه العلوم، نقول لعل هذا يؤيد معرفة العراقي القديم لمناهج البحث العلمي [1] وإليك بعض التفصيل لهذا الرأي.

بالنسبة للرياضيات، عرف الرافدى القديم العدد وخصائصه، وحل القضايا الهندسية بالطرق الجبرية، بواسطة الجمع بين الشكل والعدد، وكان الجبر الرياضي عنده ذا قواعد مقررة تسير بالطريقة الوصفية والتعويض والاختزال، ومبدأ الحذف[2]، كما ابتكر" معكوس العدد" الذي انفردت به الرياضيات البابلية، واستخدامه النظام الستين لمرونته وقلة الكسور فيه، وتقييم الدائرة وقياس الزمن مازال مستندا إلى هذه الطريقة [3]، كما استخدم العراقي القديم المثلثات وبشكل متقدم في علم الفلك، وإليها ترجع حسابات السنة والأشهر والأيام والدورة السنوية، والأبراج الاثنى عشر [4].

أما علم الفلك، فهو من أكثر العلوم ارتباطا بالطبيعة، وانطلاقا من إدراك مبدأ العلة والمعلول، فسر العراقي القديم، كثيرا من الحوادث على هذه الأرض، وكأنها تحدث بتأثير حركة الكواكب والأفلاك، ومن بين هذه الظواهر، احتلت ظاهرة المد والجزر في جنوبي العراق، موقعا هاما في تفكير الإنسان الرافدى وحثته على النظر فيها والبحث عن تفسير معقول لها حتى ربطوها بحركة القمر، الذي احتل هو الأخر، دورا كبيرا في عقائد العراقي القديم [5]" ولقد تراكمت خبرتهم في الأرصاد الفلكية في المعابد وخارجها، ولعل الكاهن الأول على رأى " ويلز ":- ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي، فعلمه على الجملة تجريبي، مع ذلك فإن وظيفته الأولى هي (المعرفة) وكان استخدامها عمليك لذلك تجلت في التقويم البابلي كشواهد علمية معتمدة على الحساب القمري

---

(1) الدكتور ياسين خليل : منطق البحث العلمي، بيروت، ١٩٧٤ م، ص ٣٤-٣٥،٣٨،٤٩

(2) راجع الدكتور ياسين خليل : التراث العلمي العربي، ص ٢٥ .

(3) سارتون : تاريخ العلم ١٦٤/١،١٦٥،٢٢٠

(4) المصدر نفسه : ١٦٧/١-١٧٠، ١٧٣، ١٧٥ - ١٧٩، ٢٧٠ .

(5) نفسه ١/ ٢٧٠

المسجل منذ أقدم العصور وحتى بعد الميلاد، وبالمصطلحات البابليـــة[1]، وبذلـــك تكون الأرصاد البابلية، من أول الأرصاد المدونة في تاريخ الإنسان قبل إنشاء مرصد (كرنيش) ١٧٥٠ م، لقد استفاد منها جل المفكرين الذين درسوا في بابل[2] وعن علوم الطب والفيزياء والكيمياء والفنون الجميلة ومكانتها عند العراقي القديم، فقـد ابتعد العراقي القديم عن السحر والشعوذة، والـــتزم منـــهج البحـــث العلمـــي، والتشخيص بواسطة طرق علمية متقدمة[3]، كما عرف أبحاثا في الطبيعة، وكانت له إبداعاته في العلوم العلمية والفنون المختلفة والصناعات المتنوعة، المعتمدة علـــى معرفة دقيقة بالكيمياء وخواص العناصر، وبخاصة تلك الـــتي تتصـــل بالصياغـــة والزخرفة والألوان [4]، إضافة إلى ذلك، يقدم تاريخ التراث العلمي العراقي العديـــد من العلماء الذين تنوعت اختصاصاتهم من الذين اســـتخدموا الاســـتقراء المقـــترن بالملاحظة والتجربة في استنتاجاتهم المختلفة [5]. ولم تخل منجزات العراقي القـــديم الفنية من مسحة التأثر بالمعتقدات الدينية وخصوصاً فكرة مـــــزج عنـــاصر مـــن حيوانات مختلفة في شكل مركب [6]، كما احتلت الموسيقى في فنونه موقعاً متقدماً،

---

[1] ويلز : موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز جاويد، طبعة القـــاهرة ١٩٦٧،ص ٥١-٥٢، وأيضـــا الدكتور فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، بغداد ١٩٧٣ م،ص ١٧.

[2] سارتون : العلم القديم والمدينة الحديثة، ترجمة عبد الحميد صبرة، طبعة القـــاهرة، ١٩٦٠ م ص ٩٦ - ٩٧.

[3] راجع بالتفصيل د. أمنة صبري مراد : لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة ١٩٦٦ م، وكذلـــك د. عبد اللطيف البدرى : الطب الآشوري، بغداد ١٩٧٦ م، ولـــــه أيضـــا، الطـــب الأكـــدى، بغـــداد ١٩٧٦،راجع أيضا : ليفى مارتن : الكيمياء والتكنولوجية الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة وتعليق د. فياض المياحى ود.جواد البدرى ود.جليل كمال الدين، بغداد ١٩٨٠ م.

[4] راجع : د. وليد الجادر : بحث عن الأصداف، منشور في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العـــدد ٢٣ لسنة ١٩٧٨ م ص ٥٨١ -٥٩٤

[5] سارتون: تاريخ العلم ٣٤٢/١، ٣٤٥، ٣٦١.

[6] على حسين الجابري: الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمـــة وحضـــارة اليونـــان، بغـــداد، ١٩٨٥م، ص ٣٣.

ضمن مبتكرات الإنسان الرافدي، سواء أكان في باب "التراتيل" والطقوس، أم في باب الآلات الموسيقية [1].

ثانيا "الفلسفة الكونية" وحيوية المادة:

إن المحاولات التأملية في تجريد الظواهر، عمليات عقلية معقدة، سجلها الإنسان الرافدي، منذ الألف الثالث ق.م.، فقد عثر في (نفر) على كتابة سحيقة في القدم تذكر اسم إمبراطورية مدينة (أرتيش) السومرية، امتد سلطانها من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، كأول إمبراطورية يذكرها التاريخ القديم [2]، ولعل أول وأهم وأخطر إنجاز حققوه بهذا الصدد هو اختراعهم "الكتابة" التي لا تخرج في مجملها عن عملية تجريد راقية [3] لأنها جعلت بالإمكان قيام وعي تاريخي عام، كان سببا مباشرا في النقلات الحضارية اللاحقة، حتى وجد (ويلز) أن جميع ما ظهر في العالم من أبجديات حقة مشتقة من خليط من الكتابة السومرية والهيروغليفية، ويحق لنا - والحديث لويلز - أن نقول أن هذه المنجزات، لم تكن لولا الجهود العظيمة التي بذلها المفكر الرافدي حتى سادت "الحياة السعيدة المشرقة الممدنة ما يقارب العشرين قرنا"، ولو استعرضنا بابل سنة ٢٠٠٠ ق.م. لوجدناها تعج بأناس مثقفين، لم يقف عطاؤهم الفكري عند جيل، حتى يوم الناس هذا، يشهد عليها أكثر من "مليون لوح طيني" موزعة الآن بين متاحف الدنيا [4].

وفي القديم كان لبيت الألواح (المكتبة) موقع هام في حياة الفرد والمجتمع، في حفظ النتاج الفكري، وأقدم ما عرفناه جاءنا من مدينة (نفر) حيث احتوى هذا البيت على عشرات، بل مئات الألوف من الألواح، كما كان لمكتبات المعابد شأن يذكر في توسيع آفاق المعرفة وبخاصة تلك التي اقترنت بعبادة إله المعرفة والحكمة والتأمل "بنون"، ومع تقدم الزمن والمجتمع، وتوسع آفاق المعرفة، وجدنا في (نينوى) أوسع

---

[1] الدكتور صبحي رشيد: تاريخ الآلات الموسيقية، بيروت، ١٩٧٠م، ص٣٠-٣١، ٥٧.

[2] ويلز: موجز تاريخ العالم، ص ٦١.

[3] راجع الفصل الأول من هذا الكتاب وخاصة التعقيب.

[4] ويلز: موجز تاريخ العالم، ٦٢، ٧٠.

مكتبة تلك التي حملت اسم (آشوربانيبال) [1]، حيث تفرد هذا الحاكم المفكر بحب عجيب للحكمة والمعرفة.

وتكمن مصادر التراث في ميداني الفلسفة الكونية (الطبيعية)، والفلسفة الخلقية، في المأثورات والملاحم التي تعكس صورة واضحة عن الإتجاهات الفكرية لدى حكماء العراق القديم [2].

---

[1] سارتون: تاريخ العلم ١/٣٥٥ و ٣٨٨ و ٣٤٢، راجع أيضا ديورانت: قصة الحضارة ٢/٢٧٨-٢٨٥ وراجع أيضا:

- Delitzch (F.), Assurbanipal und die assyrische Kultur seiner zeit, Leipzig, 1909 (Deralte Orient).

[2] نستطيع القول أن إجابات العراقي القديم على المشكلات الطبيعية والاجتماعية-، تمثل بدايات جيدة للتأمل الفلسفي، ومن الخطأ الحكم عليها بمنظور العصر، أو على ضوء نتائج البحث الفلسفي اليوناني، فتحفل حضارة وادي الرافدين بالعديد من المفكرين الذين دخلوا دائرة الحكماء، نذكر منهم:

- "سين-ليقي-أونني Sin-Lege-Uninni" الذي يرجح بأنه واضع الصيغة النهائية للملحمة جلجامش سنة ١٢٥٠ ق.م ، وهي بـ ٣٠٠٠ مقطع.

- و" كبتي إيلاني-مردوخ"، وهو مؤلف قصيدة إله الطاعون "ايرا" التي تلقاها عن "مردوخ" بواسطة الرؤيا.

- و"ساكل-كينام- أوبب" الذي تحدث عن العدل الإلهي في قصيدته الفلسفية المسماة "لأمجدن رب الحكمة " [راجع عن كل هؤلاء: طه باقر، خواطر، آفاق عربية، بغداد، الأعداد ١٠ لسنة ١٩٧٧م، ٦، ٧ لسنة ١٩٧٨م].

- "اترا حاسس الحكيم"، لقب بمنقذ البشرية، والمتناهي في الحكمة" [طه باقر: خواطر، آفاق عربية ١/٤٥ لسنة ١٩٧٧م].

- "آتانا Etana"، الذي اقترن اسمه بالتساؤل عن سر الحياة ومعالجة مشكلة العقم، والبحث عن سر المولد [كريمر، أساطير سومر، ترجمة يوسف داود عبد القادر، بغداد، ١٩٧١م، ص ١٠٤].

- "آدابا الحكيم": العارف المتصف برجاحة العقل، ولقب بالابن الأحكم لمدينة اريدو السومرية، وصف بأنه "نموذج للإنسان الكامل، وهو أحد الحكماء السبعة. [ديورانت، قصة الحضارة، ٢/٢٨٥، وفرانكفورت: ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٧، كريمر: الأساطير السومرية، ص ١٠٢-١٠٢].=

وتضمنت هذه المأثورات والملاحم أبرز المشكلات الفكرية الأساسية، والتي تدور حول الكون والحياة، وأصل الوجود والأشياء، والخلق والإنسان، وقصة الحضارة، والمجتمع الإنساني ومشكلاته، وسلوك الفرد، وقيم المجتمع وقضية العدل الإلهي، ومسألة الخير والشر، وماهية الصراع في الوجود وحدوده.

وتظهرنا هذه المأثورات والوثائق الأثرية - التي وصلتنا عن العراق القديم - على أن طبيعة الأشياء (العالم) المحددة، جاءت متأخرة، سبقها في فجر الزمن عالم الوعد (الوجود بالقوة) الذي كان سديما (هيولي) لم يتخذ له شكلا، ولا اسما "إنه في طور الإمكان"، ثم بدأت عملية "تسمية" الأشياء والخلق من مبادئ مركبة من عناصر متناقضة.

إن فكرة العراقيين القدماء - عن الكون - تعود إلى أكثر من أربعين قرنا خلت حيث رفضوا الاعتقاد بجمود الدنيا أو فراغها، بل نظروا إليها باعتبارها "حية" توحدت فيها الظواهر الطبيعية بالعلاقات الاجتماعية، بما يقربنا من وحدة الوجود المقترنة بالتشبيه والتجسيم [1]، وتلك مسألة ترتقي إلى السومريين والأكديين، حيث جاءت آراؤهم حول الخلق وتنظيم الكون ومولد العناصر (الآلهة) بما ينم عن تناول عقلي ناضج يمكن التعرف من ورائه "على قدر من التأمل اللاهوتي والكوني" [2].

وقد عمق الإنسان الرافدي استنتاجاته الطبيعية، مستفيدا من الحرية التي تمتع بها في تعديل مجرى الأفكار الفلسفية عن الكون بفضل تطور معتقداته الدينية والجارية وفق مقتضيات الزمن، وكأن نظرية ديناميكية فيضية [3] تلك التي ورثها فيما بعد هرمس البابلي ثم أفلوطين.

= - "كوديا الحكيم"، الذي يمثل نزوع الإنسان إلى الإصلاح والتأمل، اسمه بالسومرية يعني "ذا فكر = واسع" [ما قبل الفلسفة، ص ٢٥، ٢٨، ٢٢٤ - ٢٢٥.]

[1]، [2] كريمر، أساطير سومر، ص ٧٧، ١٢١.

[3] جاء في أحد الألواح "بعد خلق (آنو) السماء، خلقت السماء الأرض، وخلقت الأرض الأنهار، وخلقت الأنهار القنوات، وخلقت القنوات المستنقعات، وخلقت المستنقعات السدود.." [كريمر، أساطير سومر ص ١٠١].

واعتقد العراقي القديم أنّ كل شئ في هذا الكون يحمل سر قوته بالأسم الذي يحمله، وليس هناك شئ دون اسم، أي أنّ الشئ بلا اسم لا وجود له، لأنّ وجود الشئ وسره أمران متلازمان، والأسم هو القوة الكامنة في الأشياء) والأشخاص) تدفعهم في إتجاه معين [1] ، فاسم الشئ مرادف لوجوده، ولذلك فهو "جوهر الشئ" [2] .

وبالنسبة لنشأة الكون فقد أكدت التصورات السومرية (الكوزمولوجية) - إذا ما استخدمنا لغة العصر - على أنّ الآلهة وصفت البحر (الماء) بأنّها الأم التي ولدت السماء والأرض على شكل (جبل كوني)، وعلى ذلك الجبل الكوني ولد (آن) زملاؤه (آلانو - ناكي) في قمة الجبل (السماء) اما القاعدة فكانت (الأرض-آيا). وإذا ما حللنا هذه التصورات، وجدناها تعترف بالخلق المادي، وذلك لأنه، في البدء ومنذ (الأزل) كان (البحر الأول) - الماء - ولم يكن غيره، وهذا قولٌ صريح بقدم الهيولي الأولى لنشوء الكون، وأن المياه الأولى كانت سبباً لظهور (الجبل الكوني) ممثلاً بالأرض والسماء المُتحدتين، وتولّد من جراء ذلك الاتحاد الأرضي السماوي، عنصر (الهواء) الذي أصبح فيما بعد سبباً في انفصالهما؛ وبعد انفصال السماء عن الأرض كان (آنو) في الأعالي و (أيا) في القاعدة، وأنه من اتحاد الهواء بالأرض تعينت مراحل تنظيم الكون وخلق الإنسان وتأسيس الحضارة، ومعنى ذلك أنّ الماء والهواء، كانا سبباً للحياة والكثرة.

وبعد إزالة المسحة الأسطورية عن هذه الآراء وتحليلها تحليلاً موضوعياً، يتأكد لنا وجود تصورات عن نشأة الكون حرية بأن تسمى (فلسفة)، فقد تميزت، هذه التصورات السومرية، بالقول بالسرمدية والأزلية للمادة الأولى في الكون (الجوهر)، وبأنّ الماء هو (جوهر) الكون الذي كان سبباً في ظهور الأرض والسماء المتحدتين، أي تولد الحالة الصلبة، من أصل (سائل)؛ وتولد (الهواء) من اتحاد الشمس والأرض، ثم أصبح سبباً في أنفصالهما، كما أن الهواء أصلٌ لوجود الشمس والقمر وبقية الكواكب المعروفة.

---

[1] فرانكفورت: ماقبل الفلسفة، ص٢٥.

[2] باقر، خواطر، آفاق عربية، العدد ١٠ لسنة ٧٧، ص٥١، ٨ لسنة ١٩٧٨، ص ٨٢.

وبعد انفصال اليابس، وانبعاث الحرارة من الشمس، ولوجود الرطوبة من الماء، أمكن وجود النبات والحيوان والإنسان على وجه الأرض؛ بصورة حاول محاكاتها الفيلسوف اليوناني أنبادوقليس [1].

إنَّ هذه الأفكار الفلسفية - عن الكون - كادت تشير إلى نظرية "الفيض" التي سنجدها عند أفلوطين فيما بعد [2]، فالكون - الذي يضم كل ما في الوجود من الظواهر والأفكار المجردة - يأخذ شكلاً هرمياً، أعلاه (السماء) بما فيها من كواكب وأفلاك ونجوم، ثم (الهواء) (فالأرض) (فالماء)، ومعنى ذلك أنَّ حقيقة عملية الخلق، في الفكر الرافدي، تظهر على شكل ولادات تمخضت عن تجاذب "السالب والموجب" من أصلٍ أزلي، ظهرت بعدها سلسلة الموجودات، وكل واحدة منها سر قوتها بذاتها (جوهرها)، وبذلك تكون عملية الصنع، هي عملية خلق وتنظيم "إنبثاقي" من مادة كانت تحكمها عناصر الفوضى والظلام "حيث كان الخلق وفق رغبة عناصر التجريد.

ويلخص لنا (جاكوبسون) الخلق الإنبثاقي هذا بقوله:

---

[1] أساطير سومرية: ص ٦٤-٦٦، ٦٩-٧٨، ١١٤-١١٩. وأنبادوقليس، أحد فلاسفة اليونان السابقين على سقراط، وُلد بمدينة أجراكاس بجنوب صقلية حول عام ٤٩٠ ق.م. وتُوفي حول عام ٤٣٠ ق.م.، وقد اعتقد في نفسه قدرة تفوق الطبيعة، بل ادعى الألوهية، وقد ألهه الناس بعد موته الذي تحوطه الأساطير، وقال بالعناصر الأربعة (النار والهواء والأرض والماء) مفسّراً بها الطبيعة، وقال بفكرة وجود نفس كونية اعتبرها علة حركة الكون الذي نشأ - في رأيه - عن الإمتزاج والإنفصال في العناصر الأربعة بفعل قوتين إلهيتين، الحُب الذي يجمع، والكراهية التي تفرق. (راجع الدكتوره أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، ص ٩٦ وما بعدها).

[2] ولد -أفلوطين - حسب رواية تلميذه فورفريوس، بمدينة ليقوبوليس - أسيوط بمصر، عام ٢٠٥ وتوفي عام ٢٧٨م، ذهب إلى القول أنَّ لهذا العالم ظواهر حية، وهو دائم التغير، ولم يوجد نفسه، بل لابد له من علة سابقة هي السبب في وجوده (الواحد المحض)، والأشياء كلها صدرت - فاضت أو انبجست - منه، وبه ثباتها وقوامها، وإليه مرجعها، وأول ما فاض عن الواحد، العقل، ثم النفس، ثم بقية المحسوسات.

(راجع: الدكتور عبد الرحمن بدوي: أفلوطين عند العرب، ط٢، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م، ص ١٣٤ وما بعدها.

إننا نجد لدى سكان مابين النهرين "إشارة إلى الخلق، وفصل السماء عن الأرض، ودور الهواء في ذلك، إنها دراسة لأصل معالم الكون الرئيسية، كما أنها تحوي كيفية تأسيس نظام العالم الحالي، فنجد مبادئ (الزمن الأول) والفلسفة الاسمية) و(المادة الأولى) - الهيولي - و(الكون بالقوة) - عالم الوعيد - بشكل واضح، مع استمرار القول (بالماء كمصدر أول للوجود)، لكنه مركب من عنصرين، وهما الماء العذب، والماء المالح، حيث كان سبباً لظهور (السحب والسديم) والتي امتزجت في كتلة كبيرة، فكونت لنا (المادة الأولى) إنها (الكون بالقوة)، ثم بدأت عملية الخلق (الصنع) الثلاثية على شكل أزواج ثنائية متقابلة، تنتهي بمركب جديد"[1]

ثالثاً: "الفلسفة الخلقية" بين "ملحمة جلجامش" و"تشريعات حمورابي":

(أ) "الطاعة" جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم:

آمن إنسان وادي الرافدين، بأنّ كل ما في الكون يسير حسب "خطط" إلهية تستند على قواعد ونواميس مقررة "وما على الإنسان إلاّ أنْ ينقاد لها طائعاً مختاراً "لأن الآلهة استهدفت من ورائها خير الإنسان وعدالته، كما استهدفت تسيير الكون دونما اضطراب أو خلل فوضعت له نظاماً دقيقاً عادلاً من أجل الحفاظ على التوازن والأنسجام الكلي فيه، ما على الفاضل إلا طاعته.

واحتلت فضيلة "الطاعة" الواعية موقعاً مهماً في الأخلاق الرافدية، تعضدها مفاهيم خلقية ظهرت في مجري التطور اللاحق لمدارك ووعي الإنسان الرافدي، أهمها "فضيلة الإنسجام والتوافق".

والحياة الفاضلة هي الحياة "المطيعة"، والعصر الذهبي، هو عصر الطاعة، حيث تتدرج فيه هذه الفضيلة من دائرة الأسرة، فالمجتمع، فالدولة، والنظام، وفق سلطة موجهة، إذ يستحيل في عُرف العراقيين القدماء وجود عالم منظم دون سُلطة تكون دائماً على "حق" لأنها تطبق "القانون العام" و "النظام الإلهي"، وعلامة التنظيم في حياة الفرد هي الطاعة والتخطيط للمستقبل من أجل حياة أفضل، ومركب "الطاعة" و"التخطيط" هو الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق، والأبناء الكثر، والمال.

---

[1] ما قبل الفلسفة، ص ١٥٦ - ١٧٢.

فنحن واجدون نشيداً يصف عصراً ذهبياً قادماً، يتميز بأنه عصر الطاعة!

يوم يحجم المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الابن أباه،

يوم يبين الاحترام جلياً في البلاد، ويبجّل صغيرُ القَدرْ الكبيرَ،

يوم يحترم الأخ الصغير .. أخاه الكبير،

ويرشد الولد الأكبرُ الولدَ الأصغر، ويتمسك الأخير بقراراته [1].

ويوصّي العراقي القديم دائماً بأن "اسمع كلمة أمّك، كما تسمع كلمة إلهك"، و"احترم أخاك الأكبر"، و "اسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة أبيك"، و"لا تغضب قلب اختك الكبرى".

وما طاعة المرء للأفراد الذين يكبرونه سناً في العائلة إلاّ البداية، فوراء العائلة دوائر أخرى وسلطات أخرى: الدولة والمجتمع، فثمة المراقب حيث يعمل المرء، وثمة المشرف على الأعمال الزراعية التي يشترك فيها المرء، وثمة الملك، وكلهم يطالب بالطاعة المطلقة، والعراقي القديم ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الأستياء والشفقة – ونظرة الخوف أيضاً. والجنود بلا ملك غنم بغير راعيها."

وإذا كان الجمهور بلا قائد ينظمه ويوجهه، ضائعاً حائراً كقطيع من الغنم دون راع، فإنه أيضاً شئ خطر، قد يكون مدمراً كالمياه التي تحطم سدودها، وتغرق الحقول والساتين إذا لم يتداركها مفتش الري بصيانة السدود. "العمل بلا مراقب كالمياه بلا مفتش ري".

ثم إن الجمهور الذي يعوزه القائد والتنظيم لا يجدي ولا ينتج، كحقلٍ لا ينمو الزرع فيه إذا لم يحرث "الفلاحون" بلا مشرف كحقل بلا حارث".

ولذا يستحيل وجود عالم منظم، إذا لم تفرض عليه سلطة عليا إرادتها، والفرد هنا يشعر بأنّ السلطة دائماً على حق، "أوامر القصر" كأوامر آنو، لا تتبدل، كلمة الملك حق، ونطقه كنطق الإله لا يغيره شئ" [2]، وفضلاً عن دوائر السلطة البشرية

---

[1] راجع جاكوبسن، ماقبل الفلسفة، ص ٢٣٩.

[2] راجع: جيمس ريشارد: أساطير بابلية، ترجمة سلمان التكريتي ص ٥١، ١٢٢-١٢٧.

من عائلة ومجتمع ودولة للحد من حرية الفرد، هناك دوائر السلطة الإلهية الـــتي لا يجوز له أنْ يتخطاها.

ويفسّر النجاح – عند العراقي القديم – بأنه قوة خارجية تتغلغل في أفعال الفـــرد، وتتيح له إنتاج النتائج، فالنتائج لا تصدر عن قدرة الإنسان نفسه، لأنه أضعف مـــن أنْ يؤثر على مجرى الكون تأثيراً يذكر، ولا يقوى على ذلك إلا الإله، ولذلـــك، إذا حققت الأشياء ما كان يأمله الفرد، بل فاقت كل ما يأمل، فلا ريب في أنَّ إلهاً مـــا قد اهتم به وبأفعاله وأتاه بالنجاح، فهو على حد قول سكان ما بين النهرين، " قد حصل على إله"، واعتقادهم بأنّ الإله الشخصي هو القوة الكامنـــة وراء فـــلاح الإنسان ظاهرٌ بوضوح في أقوال مثل:

ليس بمقدور الإنسان، بلا إله (شخصي)،

أن يكسب خبزه،

ولا بمقدور الفتى أنْ يحرّك ذراعه ببطولة في المعركة.

ومثل:

عندما تختط المستقبل يكون إلهك إلهك،

وإذا لم تختط للمستقبل، ليس إلهك بإلهك [1]

أي أنك لن تحظى بالنجاح، إلا إذا اختططت للمستقبل، وعندئذٍ فقـــط، يكـــون إلهك معك.

ولذلك يعبد المرء، ويطيع هذا الإله الشخصي قبل غيره، وفي كل مكـــان للإلـــه الشخصي حيث يصلي ربّ الدار ويأتي بالقرابين كل يوم.

على الإنسان أنْ يسبّح بعظمة إلهه.

وعلى الشاب أنْ يطيع بكل جوارحه أمر إلهه. [1]

---

[1] ما قبل الفلسفة، ص ٢٤١، وأيضاً: Genouillac (H.de), Tablettes Sumeriennes - arcaique. Paris, 1909.

والآن، مالذي كان الإنسان يرجوه من خير بتمسكه بحياة الفضيلة التي تمثل الطاعة - للأسرة والحكام والآلهة - جوهرها، إنّ الإجابة على ذلك تتفق ونظرة البابلي القديم إلى الدنيا، وتتفق ومنزلة الإنسان في الدولة التي يسيطر عليها الآلهة، فالإنسان قد خلق ليكون عبداً للآلهة، إنه خادمهم، وللخادم المجتهد المطيع أنْ يلجأ إلى سيده في طلب الحماية، وأنْ يتوقع الترقية والمكافأة منه، أمّا الخادم الكسول اللامطيع فلا أمل له في شئ من ذلك، فطريق الطاعة والخدمة والعبادة هي طريق التمتع بالحماية، وهي كذلك الطريق إلى النجاح في الدنيا، وأسمى القيم في الحياة البابلية - وكما سبق - الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق بين الجماعة، والأبناء الكثر، والثراء. [٢]

(ب) "ملحمة جُلجامش" ومشكلة الحياة والموت:

لقد بقيت فكرة الدولة الإلهية [٣] مستقرة نسبياً طوال الألف الثالث ق.م.، غير أنّ الدولة البشرية الفعلية تطورت في أثناء ذلك تطوراً كبيراً، فازدادت السلطة المركزية قوة، واشتد جهاز العدالة كفاءة، وجعل العقاب يتلو الجريمة بانتظام متزايد، وفكرة أنّ العدالة شئ من حق كل إنسان، أخذت تتبلور ببطئ في الألف الثاني ق.م.، وهو الألف الذي ظهرت فيه شرائع حمورابي بحيث أضحى الناس يشعرون أنّ العدالة حقّ مشروع، لا منّة شخصية. غير أنّ هذا الرأي كان لابد له من أنْ يناقض نظرة الناس القائمة حينئذٍ إلى الدنيا فبرزت إلى الوجود مشكلات أساسية أهمها تبرير الموت والثورة عليه في صورة سخط مكتوم واحساس دفين بالظلم،

---

[1]- Dhorme, Edouard, Les Religio 1945 pp. 11-15.

[٢] جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، ص ٢٤٢ وأيضاً

- Tablettes Summeriennes archaiques. Paris, 1909.

[٣] الدولة الوحيدة التي تتمتع بالسيادة الحقيقية المستقلة عن كل سيطرة خارجية، هي الدولة التي يتألف منها الكون، أي الدولة التي يحكمها مجمع الآلهة، وهذه الدولة إلى ذلك، هي التي تبسط سلطانها على بقاع الرافدين، والأراضي الفسيحة فيها هي مُلك الآلهة، ولّما كان الإنسان قد خلق لمنفعة الآلهة، بوجهٍ خاص، فما غايته إذن إلا خدمة الآلهة، ولذلك لن تستطيع أية مؤسسة إنسانية أنْ تجعل هدفها الأول إسعاد أهلها من البشر، لأنّ هدفها الأول إنما هو السهر على خدمة الآلهة؛ وبالتالي فما نسميه بـ" دولة المدنية" ليس إلا منظمة خصوصية غرضها الأول إقتصادي، إنها مزرعة أحد كبار الآلهة.

وهذا الإحساس منشؤه الفكرة الجديدة عن حقوق الإنسان والمطالبة بالعدالة في الكون، فالموت شر، وهو في قسوته شر من كل عقاب، بل هو العقاب الأكبر ونجد معالجة له في ملحمة جلجامش [1] التي يُعتقد أنها ألفت في أوائل الألف الثاني ق.م، وهي ملحمة بنيت على أقصاصيص أقدم منها أُعيد كتابتها في قالبٍ جديد، وجُمِّعت حول موضوع جديد هو موضوع الموت.

(وجلجامش) شاب شديد العزيمة، وهو حاكم مدينة (أوروك) في بلاد سومر، إنه يسوق شعبه سَوقاً عاتياً، فيلتمس الشعب إلى الآلهة بأنْ تخلق منافساً له يشغله، فيجد الشعب شيئاً من الراحة، فتستجيب الآلهة وتخلق (أنكيدو) ويصبح رفيق جلجامش، ويخرج الإثنان في طلب المغامرات والأخطار، ويشقان الطريق إلى ''غابة الأرز'' في الغرب، حيث يصرعان (حوُاوا) - وهو وحش رهيب يحرس الغابة (لانليل)، وقبل بدء المعركة مع (حوُاوا) تقاعس (انكيدو) برهة وقد خذلته شجاعته فراح (جلجامش) يؤنبه بقوله:

من الذي، يارفيقي أدرك من السمو (ما يمكنّه من)

الصعود إلى السماء والإقامة مع شماش إلى الأبد؟

مجرد انسانٍ - أيامه معدودات،

ومهما فعل إن هو إلا هبّة ريح.

أراك قد خشيت الموت.

أين بأسك وشجاعتك؟

دعني أقود،

وتخلّف أنت لتصيح بي: ''أطبق عليه، ولا تخف!''

وإذا سقطت مضّرجاً، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي.

فيقولون عني ''قُتل جلجامش وهو يصارع حواوا الرهيب..''

---

[1] راجع: طه باقر، ملحمة جلجامش، ط٢ بغداد، ١٩٧٢م، وتعريبها للدكتور سامي الأحمد في مجلة التراث الشعبي البغدادية، الأعداد ٦ لسنة ١٩٧٦م، ٧،٨ لسنة ١٩٧٧م.

ويردف قائلاً أنه إذا سقط قتيلاً سيروي (أنكيدو) لابن جلجامش عن بـأس أبيـه وقوته، فليس في الموت هنا رهبة أو هول، والشهرة تلطّف من حدته، لأنّ إسم المرء يبقى حياً في الأجيال القادمة [1].

لم يعن الموت حتى تلك الآونة، شيئا لجلجامش، فهو قد قبـل مقـاييس البطولـة المعهودة ومقاييس حضارته المعهودة، الموت لابد منه، ومن العبث التخوف منـه، فإذا كان على المرء أن يموت، فليمت ميتة المجد والفخار في مقاتلة خصم جدير بـه، لكي تعيش شهرته من بعده، إلى أن يموت (أنكيدو) - عقابا له من الآلهـة علـى صرعه حواوا - فيدرك (جلجامش) ما لم يدركه من قبل.

"أنكيدو، يارفيقي، يا أخي الأصغر، يامن كان معي في التلال.

يصطاد حمار الوحش، والفهد في السهول.

من كان برفقتي يفعل كل شئ: تسلق صخور التلاع

وأمسك بثور السماء وارداه قتيلاً،

وقذف أرضاً بحواوا الساكن في غابة الأرز.

ولكن - ما هذا النوم الذي غرقت فيه؟

لقد اعتم وجهك وما عدت تسمعني."

خسارته الفادحة أفجع من أنْ يتحملها، فيرفض أنْ يعترف بها كأمرٍ واقع، يقول:

ذاك الذي شاطرني في كل خطر،

حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به.

بكيته طيلة النهار وطيلة الليل بكيته

ورفضت الاذن بدفنه

فلعل رفيقي أن ينهض لصراخي.

سبعة أيام وسبع ليال

---

[1] ماقبل الفلسفة، ص ٢٤٧-٢٤٨.

إلى أنْ سقطت من أنفه دودة.

لا عزاء لي منذ أن راح،

ورحت أنا كالصياد أطوّف في الفيافي.

وتظل خواطر الموت تلاحق جلجامش، لم يبق له إلا خاطر واحد، وهدف واحد، هو العثور على الحياة الدائمة، فيخرج للبحث عنها، والكل يجيبه بأنّ بحثه لا أمل يرُجى منه

جلجامش، أين رحت تجول؟

إنّ الحياة التي تبحث عنها، لن تجدها أبداً

لأنّ الآلهة عندما خلقت الإنسان، جعلت

الموت نصيبه، وأمسكت

بأيديها عنه الحياة.

جلجامش، املأ بطنك.

وأملأ أيامك باللذائذ،

وأرقص واعزف الالحان ليلاً ونهاراً.

والبس القشيب من الثياب،

واغسل رأسك واستحم

وانظر إلى الطفل الممسك بيدك

ودع زوجتك تتمتع بعناقك

هذا وحده ما يبتغيه البشر.''

ولكن (جلجامش) لا يستطيع أنْ ينصرف عن بحثه، ويستسلم لما هو من نصيب الناس كلهم، إنه ليتحرق شوقاً إلى الحياة الدائمة، فيستمر في البحث الجاد والمضني عنها، إلى أنْ يوفق في الحصول على نبتة تنمو في قاع البحر، تعُيد إلى من يأكل منها شبابه، فينتعش (جُلجامش) بعد اكتئابه، ويُلقي بنفسه في بركة باردة، ويترك (نبتته العزيزة) على الضفة، وفيما هي ملقاة هناك، تشم رائحتها إحدى الأفاعي، فتخرج

من جحرها، وتختطفها، وتأكل منها، فإذا ما طعنت في السن، وُلدت فتية من جديد، أمَّا الإنسان فتستحيل عليه العودة إلى الشباب، لأنَّ نبتة جلجامش ضاعت عليه، ويمتلئ قلبه مرارة، ويتأمل في هذه النهاية الساخرة لبحثه الطويل.

"لمن أجهدت عضلاتي؟

لمن سكبت الدم من قلبي؟

لم آت لنفسي ببَركة واحدة -

و لم احسن الصنيع إلاّ لأفعى الثرى".

وهكذا نجد أنَّ الموت في عرُف العراقي القديم، ضربٌ من الحقيقة المجسدة "حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به"، والخلود محال "إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها أبداً، والنتيجة (نعيش) نحن اللذة، "املأ أيامك باللذائذ"، "هذا وحده ما يبتغيه البشر"، مع انصياعنا للأمر الواقع المفروض حسب القوانين الالهية على الإنسان، إنها معادلة جدلية بين الحياة والموت، والأخير حتمٌ "يلغي" "الخلود".

ولّما كان لابد من الموت طمأن الإنسان نفسَه بالنظر إليه نظرة مادية، مع بقاء دنيانا هي الأجمل مهما كانت صورة الحياة الثانية (أرض اللاعودة)، لذلك حاول (جلجامش) أن يتمرد على (القانون الإلهي) ببحثه عن الخلود الحقيقي، وحينما فشل، استعاض عنه بالخلود المعنوي، "لم آت لنفسي ببركة واحدة"، " وإذا سقطت مُضرجاً، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي".

لقد أجابت الملحمة عن مسألة أخلاقية كُبرى شغلت فكر الإنسان طويلاً طرحتها كما يلي:

إذا كان الموت حتماً على الإنسان فماذا ينبغي على الفرد أن يسلك في هذه الحياة؟ أينبذها ويفر منها متقشفاً؟ أم يسلك سبيل اللذة والتنعم بالحياة تنغماً كلياً، أم يقبل قانون الحياة والطبيعة، ويذعن لما ليس منه بُد، فيضبط زمام النفس، ويقوم بتلك الأعمال الإنسانية التي تخلده؟

وهكذا تكون الملحمة قد عرضت لنا أبرز الاتجاهات الخلقية تتمثل في:

(أ) فلسفة اللذة، خلاصتها اقتناص الفرص للتنعم بالحياة.

(ب) الفلسفة (الهروبية)، التي تسعى جاهدة للتنصل من مسؤولياتها في الحياة.

(جـ) الفلسفة التبريرية، التي يسعى الإنسان من ورائها إلى تبرير أفعاله حتى وإنْ كانت خاطئة.

(د) الفلسفة الواقعية، التي تسعى إلى تحقيق الإنسجام مع الطبيعة، والإتيان بالمفيد من الأفعال التي تخلد ذكرى صاحبها،

وبذلك نجحت الملحمة في مناقشة مشكلات خلقية مازالت تشغل بال الإنسان، وانتهت إلى موقفٍ أخلاقي ملتزم، تمثل في تأكيد التفاؤل بالمأساة الإنسانية، منطلقاً من حكمة مفادها، حارب خوفك من الموت بالعمل الصالح، فأنك تعيش أبداً، فذلك يجعل الحياة أسهل عليك وعلى الجميع [1].

(هـ) "فلسفة التشريع" عند حمورابي:

احتلت الدولة في حياة العراقي القديم، منذ الألف الثاني ق.م.، موقعاً متقدماً، وكذلك "القانون"، ولا نغالي إذا قلنا أنَّ فلسفة القانون والقاعدة الحقوقية والالتزام الخلقي من المبادئ الأساسية في المجتمع العراقي منذ ذلك الحين.

فقد تميز الإنسان الرافدي بوعي اجتماعي متطور وبخاصة في باب الحقوق والواجبات، حتى أنهم اعتادوا على ممارسة حقوقهم وحرياتهم في حدود "القانون" باعتباره الأداة التي تحقق "الإنسجام" و"العدالة" والهادي للسلطة، فرفضوا على هذا الاعتبار كل محاولة للانتقاص من حريتهم الشخصية [2]، وتقدم لنا (بابل) في علاقتها بمواطنيها أنموذجاً للمدينة الفاضلة التي هيأت لهم أجواء العيش والإبداع العلمي المتقدم، واحتل حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م.) موقعاً هاماً في تاريخ هذه المدينة.

فقد نظم المذهب الإداري للإمبراطورية، وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط، وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التي تضم ألواح

---

[1] راجع: ملحمة جلجامش ص ١٩-٢٠، ص ٥١.

[2] راجع ديورانت: قصة الحضارة ٢/١٣-٢٣، د./سامي الأحمد: المدخل إلى تاريخ العالم القديم، القسم الأول (العراق) بغداد ١٩٧٨م، ص ٢٧٤ - ٢٧٦.

عقود ورسائل ملكية، ولكن أهم أثر تذكاري لحكمه هو مدونة القوانين التي كشف عنها في السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون [1].

وهذه المدونة - أحكام الاستقامة التي وضعها حمورابي، الملك العظيم - نظمت في دقة أحكام القانون المدني في بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزوج والتبني والارث، وكذلك سير المرافعات القضائية، وتشهد على المكانة الهامة التي كانت بابل قد وصلت إليها في تجارة الأمم، وهي تكون مذهباً محكماً لقانون الدولة،وتمثل تقدماً عظيماً بالقياس إلى قانون العادات في المجتمعات الأولى.

وقد حرّم - حمورابي- الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعه المثل بالمثل على إجراءات المحاكم المقررة، والناس من كل الطبقات، الغريب والمولود في البلاد، على السواء تنظمهم حماية القانون، ومن الطرافة بمكان بالغ أن نقرأ كيف أنّ أمثال هذه المسائل الحديثة كالاعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمور، وودائع المصارف، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال، نظمها هذا الحاكم البابلي في ختام السنوات الألف الثالثة ق.م [2].

وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين، فإنّ مدونة قوانين حمورابي، والقانون الذي جاء بعد ذلك مستنداً إليها وضعا طابعهما على تشريع هذه البلاد، لدرجة أنه أصبح في قدرة الإنسان أن يمتطي متن دابته في أمان من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حموراي؛ التي أسست نظاماً قابلاً للتطبيق على شعوب وبيئات مختلفة متباينة، من تجار أو زراع، وضعوا تحت سيطرة هيئة نظامية قوية، وجعُلوا خاضعين في القضاء للأوامر الملكية.

استمع إليه يقول في مقدمة " مدونته":

" أنا حمورابي، الأمير، المطيع، خائف الله،

لإقامة العدل في البلاد،

---

(1) - Scheil (r.), Trad. du code de Hammurabi (Mem. pub. par La Deleg. Ar. enperse, t IV), Paris 1902.

(2) راجع بورج: تراث العالم القديم، جـ١، ص٤٠-٤١.

وتحطيم الأشرار والفاسدين، لكي

لا يؤذي القوي الضعيف،

وأطلع أنا كالشمس فوق الأناس

السود الرؤوس، وأنير البلاد"[1]

وللمرة الأولى ذكر عندئذٍ المثل الأعلى الأسيوى للملك الكامل، الذى أخذت عنه الصين تعليق ملك العدالة، تقليد ملك الأب لشعبه، وهى فكرة لا يقل مداها الميتافيزيقى عن معناها الاجتماعى، ونشأ عن ذلك مصائر علم الإلهيات التوحيدى ومصائر السلام العالمى والحق ، ومستقبل المذهب العقلى، فقبل أن يفكر الإغريق فى أن الرجل الحكيم سيكون سعيداً حتى فى تنورفالاريس[2]" جاء حمورابى بعنصر حل مؤقت، وهو تخفيف المظالم الاجتماعية بالالتجاء إلى عدالة سيد أب رحيم يخفف شدة القانون بتطبيق قوانيين غير مكتوبة [3] .

وجاءت شريعة حمورابى اصلاحا قانونيا شاملا للتشريعات السابقة عليه، وهى غير قابلة للإجتهاد والتحوير، فلكل قضية عنده حكم هو الصواب، والحق لديه واحدد لايتغير، وعلى الإنسان أن يسعى دائما إلى تحقيقه، وإذا ما فشل فى ذلك فعليه أن يدفع ثمن الخطأ [4]

ولكى ندرك حجم التقدم الحاصل فى وعى الانسان الحقوقى - كما أظهرته مدونة حمورابى- فليس هناك أظهر من تفحص " مكانة المرأة " فى القوانين العراقية، فهى معيار الكشف عن مستوى النضج الحضارى، فى ذلك المجتمع، وفى أى مجتمع أخر، إن الأحوال الشخصية فى شريعة حمورابى مثلتها المواد (١٢٧ - ١٩٤)، التى عالجت مسالة الأولاد ورضاعتهم، وعدم شرعية الزواج بدون عقد شرعى،

---

[1] جاكوبسون، ماقبل الفلسفة، ص ٢٢٨.

[2] فالاريس، طاغية صقلى عاش فى القرن السادس ق.م، وقد عرف بجبروته وتنوره النحاسى الذى كان يميت به حرقا من يريد.

[3] أورسيل، الفلسفة فى الشرق، ص٧٧- ٧٨

[4] راجع : د/عامر سليمان، القانون فى العراق القديم جـ١ الوصل ١٩٧٧ ص١٣٢ وما بعدها، والدكتور فوزى رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص٥ -٧، ٨١.

بالإضافة إلى نصيب المرأة بالتجارة، وتمتعها بالحرية فى ممارسة مهنة التجارة، وحرية الفتاة الغنية فى الزواج من عبد، وبروح المشرع المسؤول، تجاوز حمورابى فى المادة (١٣٣) مسألة زواج المرأة التى يفقد زوجها فى حرب أو ما شابه، فى الزواج بأخر، إلى الإنتظار، فى حالة وجود ما يكيفيها من الطعام، أما إذا ثبت عدم محافظتها على عفتها، مع تيسر سبل العيش لها، فتلقى فى الماء (المادة ١٣٣ ب). أما إذا لم يترك ذلك الرجل الطعام الكافى لها (المادة ١٣٤) فلا جناح عليها، لإن هى دخلت بيت رجل ثان (تتزوج)، وبذلك قرن المشرع سلوك الفرد بظروفه المعاشية والاجتماعية، أما إذا دخلت تلك الزوجة - التى لم تكن تمتلك الطعام الكافى - بيت رجل، قبل عودة زوجها، وانجبت منه أولاداً فتعود إلى زوجها عند عودته (تطلق) مع بقاء الأولاد مع أبيهم. وأكدت المادة (١٣٦) على عدم رجوع الزوجه التى دخلت بيت رجل ثان (تزوجها) بعد هروب زوجها من الحرب، إلى ذلك الزوج عند عودته فى نهاية الحرب.

ولكى لا يخدش (حمورابى) كبرياء الرجل ومكانته الاجتماعية ساوى فى المادة (١٧٠) بين أبناء الزوجه وأبناء (الأمة) وأبناؤها، ولايحق لزوجته أو أولادها التحكم بهم مطلقا (المادة ١٧١) ؛ معنى ذلك أن حمورابى أقر عدم ديمومة العبودية على الأرقاء (من النساء والأولاد)، ويتحررون حال وفاة الأب، على خلاف مالوحظ فى بيئات أخرى.

ولم تميز شريعة حمورابى، فى قسمة الآرث، بين الأولاد والبنات، مهما كانت درجاتهم، كما خصصت للزوجة، حصة مساوية لأبنائها فى الميراث، فإذا أساء الأبناء معاملتها، وارادوا إخراجها من البيت، فعلى القضاء معاقبة الأبناء، وابقاؤها فى بيت زوجها (المادة ١٧٢) .

كما ضمنت المادة (١٨٠) حق الفتاة المتزهدة فى المعبد من الارث، عند وفاة أبيها، حيث منحتها حصة مساوية لبقية الورثة، ويعود ميراثها بعد وفاتها إلى أخوتها، أما (التبنى) فنظمته المواد (١٨٥-١٩٣) حيث نصت الأولى على ما يلى:

إذا تبنى رجل طفلا (سمى) باسمة ورباه، فلايطالب بذلك الطفل المتبنى، ولهذا الأبن حقوق الأخرين.

أما حقوق الأبوه فضمنتها المادة (١٩٥) بنصها على ما يلى:

إذا ضرب الابن أباه فعلى القضاء أن يقطعوا يده [1].

ويزيد حمورابى على ما سبق، تأكيده على أنه ليس بالضرورة أن يدفع الرجل مهراً لزوجته، إذا اكتفت بهديته، لأنه قيمة الإنسان فوق كل شيئ، وأن الوفاء الزوجى بين الطرفين عنوان العلاقة الزوجية الطاهرة، وأيضا لا يحق للزوج أن يطلق زوجته إلا إذا كانت عقيما أو زانية أو غير منسجمة معه أو سيئة التدبير للمنزل، وأن للمرأة حق ترك الزوج (مفارقته) إذا كان قاسيا معها (دون الطلاق) إذا كان مخلصا لها، ويعلق ديورانت على ذلك قائلا.

" و لم تستمتع نساء انكلترا نفسها بهذه الحقوق إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى" [2].

وبعد، فهل نغالى إذا قلنا - استنتاجاً من كل ما تقدم - أن " بدايات" فلسفية فى " الطبيعة" و " الأخلاق " ظهرت فى وادى الرافدين، ثم انتقلت إلى بلاد اليونان، مع أفكار شرقية أخرى، لتتعمق وتتجسد على أيدى فلاسفتها، بما يواصل التقدم الفكرى والفلسفى للإنسانية، ومن أبرز هذه " البدايات" :

١- أن الكلمة تساوى الاسم، والاسم يساوى الشئ، والشئ يساوى الوجود، بمعنى أن اسم الشئ يعنى وجوده، ولا شيئ فى الوجود بلا اسم، ولا اسم بلا كلمة، ولا كلمة بدون وجود، فما لا اسم له، لا وجود له.

٢- كل ماهو موجود، هو جزء من (الكون) ولاشيئ فى الكون دون (قانون) ينظمه، عليه تصبح جميع الموجودات، خاضعة للاتساق والنظام، ومن غير الممكن تصور وجود كون تحكمه الفوضى وتسوده العبثية.

٣- الكون كالانسان، حى وعاقل ومنظم، ولا حياة دون نظام وعدل، لذلك أصبحت الحياة الإنسانية السعيدة، لاتستقيم إلا فى ظل نظام عادل، ولما كانت الكائنات الحية محكومة بالنظام، فالإنسان قبل غيره - وبوصفه سيد المخلوقات- محكوم بالنظام والطاعة الواعية.

---

[1] راجع تفصيلا لهذا: شمار (جورج بوييه) : المسؤوليه الجزائية فى الأداب الأشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، بغداد ١٩٨١ ص٣٢ -٣٥، ٢٧٨ - ٢٧٩، ٣٤٧ -٣٤٩.،

والدكتور محمد كاظم العطار : حمورابى ذلك العظيم، بغداد ١٩٨٣.

[2] قصة الحضارة ٢/٣٢-٣٣.

٤- ثم يرتقى منطق العراقى القديم إلى نسق أعلى فى دائـــرة الواقـــع الاجتمـــاعى والأخلاقى، متجاوزا حدود الأفق الطبيعى، فالكون يساوى المجتمع، والمجتمـــع لا يستقيم إلا بالنظام، ولا يمكن تصور النظام بدون(قوة) السلطة، ولا سلطة بـــدون (عدالة) القانون، ولاعدالة بدون حاكم عادل، وشعب مطيع ومتعاون، عليـــه لا مسؤولية دون قانون عادل، إذن القانون هو الذى يحدد مسؤولية الإنسان العـــاقل، والعدالة هى قانون الحياة الفاضلة فى المجتمع السعيد. وهكذا، نجد أنه كان لحضارة وادى الرافدين، منذ زمن باكر دورها المؤثر فى تاريخ البشرية، وكـــان للفلســـفة الخاصة فيما بين النهرين - طبيعية وأخلاقية- نصيب ملحوظ فى تكوين الفكـــر العالمى.